من مشاهدات سائر فى نيويورك

الأبيض والأسود ... وقصص أخرى !

تتناثر فى نيويورك الأحياء الخاصة بالأجناس المتباينة ؛ فهذا حىّ الايطاليين ، وهذا حىّ الإيرلنديين ، وهذا حىّ الإسبان ، وهذا حىّ الروس ، وتلك أحياء أخر لأجناس أُخر . . .

وإن تلك الأحياء لتبتلعها الدينة وتؤمركها ، فتتضاءل على مر الزمن ، كأجناس هذه الأحياء تربطهم جامعة أمريكية واحدة وإن تفرقت بهم المناسب والأصول . . .

تتحلل أحياء الأجناس فى بوتقة المدينة ، كما تتحلل الأجناس أنفسها فى بوتقة الأمة الأمريكية . . .

ولكنْ ثمة حىّ لا أدرى كيف يتحلل فى بوتقة نيويورك وكيف يتحلل جنسه فى بوتقة الأمة ، ومتى يتم هذا وذاك ؟ إنه كالحجر الصلد لا يلين للأحماض المذيبة ، ولا ينصهر فى أتون النار المتقدة . . .

ذلك هو حىّ الزنوج ، أو مدينة هارلم ، كما يسمونها هنالك . . .

إنه أبعد أحياء نيويورك صيتاً ، وأوضحها تميزاً . ويرجع ذلك إلى قوة المقاومة فى جنسه ، وما يحيط به من ملابسات تعين على احتفاظه بجوهره . . .

إن الأجناس الأخرى ليسرع إليها التحول والاندماج ، حتى لتكاد تنسى أصولها العريقة . أما الزنجى فإنه وإن استمسك بأمريكيته واعتز بها واكتسب كثيراً من مظاهر الحياة فيها ، فهو ما برح يعد نفسه غريباً فى أمريكا . . . غريباً فى وطنه !

إنه ليشعر بأن جنسه هدف للضيم والاضطهاد ؛ ولذلك يتحصن خلف أسوار حيه ، يكاد يحظر دخوله على غيره ، بل يكاد يقيم عليه باباً لا يستطيع اقتحامه أحد . . .

وإنه لمن عجيب المفارقات أن تجد جنساً لا يعرف له وطناً إلا أمريكا التى

يسكنها ، وهو مع ذلك يتأبى الاندماج فى هذا الوطن ، أو لعله لايجد السبيل إلى هذا الاندماج . . .

تجول فى هارلم ، فاذا بك فى حى كسائر أحياء نيويورك فىظواهر العمران ... إلا فى السكان !

مستعمرة سوداء لا ترى فيها الأشباح البيض إلا لماما . . .

إن الأبيض يطرق هذا الحى وهو عليم بأنه إذا توغل فلن يأمن على نفسه الغوائل . فكأين من كلمة أثارت شغباً وأججت حرباً ، وكأين من إيماءة أقامت قتالا وأورثت وبالا . . .

إن هذه الوجوه السود لتقلّب فيك نظر المستريب ، فاذا رجعت إليها البصر تحفزت لك مستوفزة متنمرة . . .

إن قصة الأبيض والأسود قصة تتجلى فيها الطرافة ، وإن شئت قلت الغرابة والشذوذ . . . إنها مأساة دامية ، بل وصمة فى جبين التحضر الأمريكى الناصع !

كادت قصة الأبيض والأسود تقوّض بناء الجمهورية الفتية وتفصم عراها ، فتتفكك دويلات ضئالا ضائعة الشوكة والسلطان ؛ ذلك لأن قديساً من البشر ، مثالىّ الفكرة ، تعمر الانسانية قلبه ، أبى أن يكون فى الجمهورية الجديدة أرقاء من السود يباعون بيع السلع ، فمنحهم حق الانسان ، حق الحرية والمساواة ... ذلك هو لنكولن العظيم الذى كانت روحه فداء لفكرته ، فما كاد يرفع راية العدالة ، ويقضى على الثورة حتى خر صريعاً بيد رجعية آثمة ، وراح شهيد مثله الأعلى . . .

لقد وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، وعفّت الحقب آثارها ، ولكن ثمة حرب أخرى ما برحت مستعرة الأوار ، فى الخفاء !

لقد محا القانون معانى الرق والاستعباد ، ولكنها لما تزل عامرة بها الصدور . . . الأسود والأبيض سيان أمام القانون ، وأمام فرص الحياة الرسمية فى كل منحى من مناحى الاجتماع ، ولكن نصوص القانون فى واد ، وفهم القانون والانطباع به فى واد آخر بعيد . . . فاذا عرفت أن عقلية الأبيض لا تسيغ بأية حال شخصية ذلك الأسود المنبوذ ، تسنَّى لك أن تعلم كيف يفهم الأبيض ذلك القانون ، و إلى أى مدى يجرى تنفيذه فى المجتمع الأمريكى الذى نعده معقل الديمقراطية وملاذها الأمين !

ربما تحدث الأبيض إليك عن الأسود بروح لنكولن العظيم ، روح الإخاء والمساواة ، ولكنه حين يمارس شؤون الحياة ، ويلابس ذلك الأسود فى هذه الشؤون ، فسرعان ما تتبدل الحال غير الحال ، فاذا الأبيض ينظر إلى الأسود نظرة الأحرار إلى العبيد ، ويعامله معاملة السيد للمسود !

لا ألفة بين الأبيض والأسود فى أمريكا ؛ فبينهما حاجز تكاثفت طبقاته وتحجرت على ترادف الأيام . ومنشأ ذلك أن الأبيض ما زال بواعيته الخفية ينظر بعين أجداده ، فيرى الأسود عبداً رقيقاً ، له أن يبيعه وأن يشتريه وأن يسخره فيما يبغى من الأعمال ، فكيف يراد الأبيض اليوم على أن يساويه أولئك العبيد الأرقاء ؟

ومن ناحية أخرى نرى الأسود قد استنار عقله ، واستبان له حقه فى أن يعيش حرًّا على قدم المساواة بينه وبين سائر الناس . . . وإذا كان قد اتخذ أمريكا وطناً له فشأنه فى ذلك شأن الأبيض سواء بسواء . . . وفوق ذلك فهو يرى بواعيته الخفية أن البيض القدماء قد استعبدوا أجداده ظلماً وعدواناً ، فهو يحفظ لأخلافهم البيض ثأر الجدود . ومن ثم تشهد فى الأسود المعاصر عنجهية وخيلاء ، وتلمح فى عينه نظرة الثائر المحنق ، فيزيد ذلك من حفيظة الأبيض عليه ، ويوسع بينهما هوة الشقاق . . .

ومن أضاحيك المفارقات أن الديمقراطية الرحبة التى هى شعار الجمهورية الأمريكية قد أعانت على التفرقة بين الأبيض والأسود دون عمد . . . فهذه الديمقراطية تمنح الهيئات والأفراد حرية التصرف فى الأنظمة والإجراءات واتخاذ الخطط التى تيسر سبل النجاح ، وكان من أثر ذلك أن عمدت طائفة كبيرة من المعاهد والمؤسسات ونحوها إلى إقصاء الأسود عن رحابها ، مستخدمة فى ذلك حقها فى أن تقبل من تشاء وتأبى من تشاء . . . فلم يجد الأسود بدًّا من أن ينشئ لنفسه معاهد ومؤسسات خاصة ، فاشتدت بذلك الفرقة ، وتلظت البغضاء ، وتقطعت أسباب التواصل والاندماج . . .

ستظلين يا هارلم كما أنت ، لايعفى عليك الزمن إلا إذا انقلب الأمريكيون البيض جميعاً أشباهاً للنكولن خلقوا من طينته ، وأُشربت قلوبهم فكرته ، وكانوا كمثله قديسين ، نصب عيونهم مثله الأعلى فى الإنسانية والأخاء !

ولكن أمن الخير للأمة الأمريكية أن تكون على غرار لنكولن مثالية

قديسة ، فيندمج العنصران النقيضان ، وتتزاوج العقليتان المختلفتان ؟

أم الخير كل الخير فى أن يظل للأسود ميدانه ودنياه ، وللأبيض حضارته يمضى بها طوع هواه ، ويطبعها بعقليته ومنحاه ؟

مهما يكن من قول ، فان فى سريرة الغد جلاء ما تضطرب فيه الظنون ! . . .

ما كان لنا وقد ذرعنا شوارع نيويورك وتدسسنا إلى أحيائها إلا أن نخرج من عزلة المدينة ، متخطين أسوارها فى نزهات قاصية بين الضواحى والأرباض . . .

و إنك لتحسب نفسك فى نزهة حول المدينة ، فاذا بك تعلم أنك قد اقتحمت حدود ولاية أخرى ، وبدأت تجوب مدائنها ، وتطرق عاصمتها . . .

تحاط نيويورك بضواح طريفة ، سمّها كما شئت ولايات أو مدائن أو مقاطعات، لها جميعاً طابع واحد ، فما أشبه بعضها ببعض : البالساد ، بيرماونتن ، وست شستر ، لنج بيتش ، كونى أيلند ، وما إليها . . .

دساكر وبقاع تتجلى فيها مفاتن الريف جمعاء ، ولكنه الريف فى مظهر مثالى شائق . . . إن هذه الدساكر لتعد قرى هنالك ، ولكن أية قرى هذه ؟ تلك وسائل الحضارة فى هذه المدن الريفية مستكملة مستوفاة تحيلها حضراً له مزايا الريف . . .

للناس فى نيويورك عادة ألفوها ، هى أن يخرجوا إلى تلك البقاع فى أيام الآحاد والعطلات ، و إن بعضاً من الناس ليتخذونها مستقرا ومقاماً ، يفزعون إليها انتجاعاً للراحة ، ونجاء من الزحمة والضجيج . . .

و إن لأهل نيويورك نزعة قوية إلى طلب الراحة ، ينشدونها ويسعون إلى تحقيقها ما وجدوا إليها الخلاص . . .

ترى أكثر كلماتهم دوراناً على ألسنتهم هى كلمة « ريلاكس » . . . يتناقلونها فى كل مناسبة ، فهى فردوسهم المفقود ، ونعيمهم الموعود . . . إنها « التراخى » . . .

وحق للأمريكيين أن يحلموا بهذه الرخاوة ، يهيمون بها حبًّا ، ويتحرقون إليها شوقاً . ولكن هذا الفردوس عزيز المنال على أولئك المساكين الذين دارت بهم الآلة ، وضغطتهم الزحمة ، وجهدهم التكالب على الكسب والاغتنام !

إنهم لا يخرجون من رَهَق إلا إلى رهق ، ولا يخلصون من مجهود إلا إلى مجهود . . .

إلى أين يقصدون ؟

أإلى سفوح الجبال ، حيث تجول يد الفنان فى مجالى الطبيعة فتحيلها جنات بحق : حدائق وغابات ، جسور معلقة ، وهاد ونجاد ، جداول و بحيرات للسباحة والجدف ، ملاعب تحت الخمائل ، مقاصف بين الأيك والغصون ، إلى غير ذلك من محاسن تقرّ بها العيون ، وتثلج لها الصدور ؟ . . .

ولكن كيف السبيل إلى الاستمتاع بهذه المجالى الفاتنات ؟

ليس ثمة من سبيل إلا أن ترهق نفسك وترحمها بين الكتل البشرية فى البواخر والقطارات والسيارات الحافلة ، فاذا استخلصت جسمانك من بين الجموع فى آخر المرحلة ، ورأيت نفسك قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنان الزاهية ألفيت شياطين الزحمة ، وأنظمة « الطوابير » قد سبقتك هنالك ، ووقفت لك بالمرصاد ، تعكر عليك الصفو ، وتسلبك أملك فى « الريلاكس » فتنشد مع الشاعر العربى قوله :

المستجير بعمرو عند كربتــه كالمستجير من الرمضاء بالنار

إن نشدان الراحة فى مظان الراحة هنالك معضلة من جسام المعضلات ! ولذلك تجلت أمنية « التراخى » فى مظاهر شتى من الأدب الأمريكى والفن الأمريكى ، ولا سيما الفلم السينمائى . . .

تراهم يصورون حياة الطبيعة الفطرية تصويراً بالغ الروعة ، ويشيدون بمفاتن المواطن غير المتحضرة إشادة ظاهرة . وليس ولعهم بذلك التصوير وتلك الإشادة إلا إرواء لظمأ نفوسهم إلى الراحة والرخاوة . . .

ما أكثر المتنزهات الخلوية ، وما أحفلها بالمتع المتنوعة تواتى كل امرئ بما تصبو إليه نفسه ! . . . وما أروع الطرق التى تصل بعض هذه المتنزهات ببعض ! . . . إنها طرق فسيحة معبدة ، أخليت مضماراً للسيارات تنتهبها وحدها انتهاباً . وقد يتحول الطريق جسراً عظيما يمتد أميالا طوالا ، ثم ينقلب نفقاً هائلا يتغلغل فى جوف الأرض متسللا تحت أعماق الماء ، ثم تخرج منه تستقبلك المروج الخضر والغابات المشتبكة وتلك المغانى الفاتنة تبدو فى فن بنائها كأنها لعب مكبرة أو نقوش ملونة . . .

أما الشواطئ الخاصة بالاستحمام ، فلكل بقعة منها نصيب ، فإن ضنت الطبيعة به خلقوه لها خلقاً ، وأنشأوه إنشاء !

ولعل أكبر ما يميز تلك الشواطئ حفوفها بتلك الملاعب التي نسميها : « لونابارك » . . .

ما أنس لا أنس ملعب كوني أيلند . . . رقعة واسعة تحوى كل عجيب غريب من الألعاب التي تأخذ بمجامع الألباب . . .

وإنها لظاهرة تسترعى النظر ، تلك الرغبة التي تمتلئ بها نفوس الأمريكيين في ارتياد أماكن التسلية الطفولية العامرة بالصخب والضجة والمخاطر . . .

ربما كانت علاجاً يفزعون إليه شفاء لأعصابهم المنهوكة ، على نحو ما كان يشفى به نفسه أبو نواس إذ يقول :

دع عنك لومى فان اللوم إغراء   وداوني بالتي كانت هى الداء

إنهم يعبون من تلك الخمر الكاوية للأكباد ، لينسوا ما نهكهم من جهد ومشقة . . .

إنهم ليتراسون في ذلك الصخب والضجيج ، يتركون أنفسهم على سجيتها منطلقة تمرح وتلعب . . .

هى رغبة في التحرر من الأغلال : أغلال العمل الدائب ، وأغلال النظم الصارمة !

في هذه الملاعب يحاولون أن يحطموا هذه الأغلال ، فتجد الرجل الناضج قد اهتز طرباً وهو يعتلى صهوة حصان من خشب يسابق به الريح ، أو ضج مرحاً وهو يترنح على مقعده في ذلك القطار الأهوج الذى لا يفتأ في صعود وهبوط ، أو انبعث ضاحكا والرحى السحرية تدور به دورتها الحمقاء ، ثم تلفظه لفظ النواة ؛ فلا تراه قد ترك لعبة إلا مقبلا على أخرى طلباً للمزيد من الضحك والمرح !

في تلك الملاعب الثائرة تتجلى المخاطر في صورة واضحة ، ولكنها مخاطر مأمونة العقبى . . . وإن الانسان ليولع بها إرضاء لنزعة أصيلة في أغوار نفسه . هذه الحضارة على وجه عام قد أمنت عيشه ، وسهدت طريقه ، فأصبح يحيا حياة أمن لا تكلفه جهداً ذاتيا في المغامرة ومجالدة المخاوف ، ولا تتطلب منه أية جرأة أو جسارة ، لا كما كان يعيش أبوه الأول ، يصارع ويصاول ، تعتاقه في

كل طريق عقبة ، ويخشى فى كل خطوة أن يقع فى شرك ، فاذا ذلل العقبات ، وتخطى الأشراك ، أحس قوة الشخصية وكبرياء الفتوة وزهو الغلب . . .

أما هذا الانسان الحضرى فانه قد أُحيط بما يؤمّنه حتى مل الأمن الشائع حوله ، فهو تواق إلى أن يستعيد حياة الفزع ومجابهة الأهوال ، ولو ساعة فى مجال تتناثر فيه ألعاب الصبيان !

ومن ثم يرمى بنفسه فى تلك المخاطر المصنوعة ، ويخرج منها سالماً يوهم كبرياءه أنه الفارس المغوار ، والبطل المقدام . . .

طال بنا التجوال يوماً فى هذه الشواطئ العامرة بالملاعب والمسابح والمقاصف ، حتى آذنت شمس النهار بالمغيب ، فاذا بى أسمع صوتاً يقول :

— هلاّ رافقتمونى إلى مغنى فكتور نقضى فيه هزيعاً من الليل ؟

فالتفتّ صوب الصوت ، فواجهنى صديق كريم ، سمح المحيا ، طلق الأسارير ، فقلت له على الفور :

— وما هو مغنى فكتور ؟

— مثابة فى إحدى الضواحى القصوى ، إن شئت سميتها مطعما ، وإن شئت سميتها منتدى تستمتع فيه بجلسة صافية . . .

فقلت له :

— لبيك !

وأقلتنا سيارته الرشيقة ، فانسابت فى طريق من تلك الطرق الفساح ، تمر بنا المروج والغابات والضياع ، يتلو بعضها بعضاً ، فى جو رخى الأنسام ، حتى شارفنا مغنى فكتور . . .

حديقة طيبة ، وبركة أنيقة ، يتوسطهما مبنى جميل ، كل ما فيه يشعرك بالألفة ومظاهر الحياة العائلية . . .

لستَ فى مطعم أو مشرب ، وإنما أنت فى بيت غطريف سرى من أمراء الطليان له فى الحياة ذوق فنى مصفى ، تخير هذه البقعة النائية ليحيا مع ضيوفه ورواد مغناه فى دعة وطمأنينة وصفاء ، يقدم لهم أفخر الطعام وأطيب الشراب فى تأنق وسخاء . . .

وتوخينا معزلا هادئاً بجوار الشرفة ، وأمضينا فترة هانئة . . . لا موسيقى ولا رقص ، لا حركة ولا جلبة ، لا شئ مما تحفل به مقاصف الليل !

إن انتزاح هذه المثابة عن قلب نيويورك وقيامها على أطراف الأرباض وخلوها من المغريات الشائعة ، جعلها مهوى أفئدة أولئك الذين يبتغون تذوق المتع الغالية الرفيعة فى سكينة وهدوء . . .

وتلفتّ حولى أقول :

– أين رب البيت السيد فكتور ؟

فعلا صوت ضخم رددت أصداءه أبهاء المغنى ، وقد شاعت فيه نغمة حفاوة وترحيب ، تصحبها ضحكة رنانة لا يجيد إطلاقها إلا من كان خالى البال . . .

فملت على صديقى أقول :

– قسما إنه السيد فكتور !

فاعتاض الصديق عن الجواب بالابتسام . . .

وهرع بعض قصاد المغنى إلى مصدر الصوت فى بشاشة و إيناس ، وأهاب بنا الصديق أن ننهض كما نهضوا ، فتبعناهم ، فاذا بنا أمام قفص لطيف تقف على إحدى دعائمه ببغاء رشيقة تصوب فينا النظر وتصعده بعينين حادتين . . .

فهمست فى أذن صديقى :

– من يكون هذا السيد الظريف ؟

– إنه الخل الوفى والصديق الودود لرب الدار . . .

– حقًّا إنه لخير من يؤدى حق الضيافة !

ولبثنا حيناً يحيينا هذا السيد ونحييه ، ويفاكهنا ونفاكهه ، وقد توثق بيننا الود ، واتصلت أسباب الألفة . . .

ولكن القصاد تكاثروا حول القفص ، وتكاثفت الحلقة ، فاذا بهذا السيد الظريف ينقلب عفريتاً من الجن يصخب ويثور ، ويسلقنا بلسان سليط ، فتراجعنا عنه مقهورين !

لقد استجبنا لنداء هذا الزعيم الحبيس ، فلم ندع صيحته تذهب مع الريح ، ولكنه ما كاد يحس عظمته تتجلى ، و يرى مكانته تتسامى ، حتى أشر وبطر ، وحسب نفسه زعيا بحق ، وانبرى يثور على من استجابوا له ! . . .

ذلك صنيع حيوان .

أتراه محاكياً يفصح عن طبيعة الإنسان ؟

وشرع صديقى يروى لى قصة السيد فكتور . . .

إنه طليانى تأمْركَ ، طليانى فنان فى روحه وذوقه ، احتل هذا المغنى بحديقته وبركته ، فأقام هو فى الطبقة العليا ، وجعل الطبقة الدنيا مطعما ومثابة للوجهاء المترفين . . . وإنه ليتفنن فى كل ما يقدمه من مأكل ومشرب ، وما تقع عليه العين من أثاث ومتاع . . .

ولقد استغل الحديقة ، فاتخذ منها حظيرة للدواجن ، ومزرعة للخضر والفاكهة ؛ ولذلك يقدم لك من ثمر المزرعة ما هو يانع جنى ، ومن نتائج الحظيرة ما هو منتقى شهى . . .

كل ما عندك أيها السيد فكتور — أو على الأصح أيها السنيور فيتوريو — طريف شائق حتى هذه الببغاء المتمردة الشغوب !

لقد تفتقت عبقريتك عن عمل فنى يدل على أن للطليان القِدْح المعلَّى فى حب الجمال !

حقًّا لقد ظلمكم زعيمكم الراحل موسولينى أيها الطليان ، إذ حاول أن يخلق منكم جبهة حرب وضرب ، وكر وفر ، وما أنتم إلا أمة فن جميل ، وذوق رفيع . . .

وهل تقل عظمة الفن والجمال عن عظمة القتال والصيال ؟

محمود تيمور